النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثالث عشر

الشعر النصراني وشعراء النصرانيّة بين عرب الجاهليّة واوّل الاسلام

هذا آخر فصل من كتابنا « النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة » نختم بهِ القسم الثاني منهُ المختصّ بآداب النصرانيّة . وقد أجلناهُ الى آخر الكتاب لنجعل كلّ ما سبق كتوطئة لهُ اذ كان غرضنا ان نبيّن نصرانيّة معظم الشعراء الذين سبقوا الاسلام

١ اصل الشعر العربي

زعم بعض المُتفرنجين المُتفيهقين انّ الشعر العربي سبق الاسلام بمئين من السنين بل سبق ميلاد السيّد المسيح باجيال عديدة حتّى نسبوا منهُ نُتَفاً الى زمن نبيّ يدعونهُ هوداً يزعمون انهُ عاش قبل ابرهيم الخليل في الالف الثالث قبل المسيح . وتوغّل غيرهم في غلوّهم وادّعاهم فرووا لآدم ابي البشر ابياتاً رثى بها على رأيهم ابنهُ هابيل المقتيل فعارضهُ فيها ابليس الرجيم (١)

تلك مزاعم يضحك منها العلماء ويضرب بها عرضَ الحائط كلُّ من لهُ ادنى إلمام بتاريخ اللغات عموماً واللغة العربيّة خصوصاً

وقد ارتأى البعض انّ سفر أيوب المورود في التوراة عربيّ الاصل عربيّ اللهجة والتصوّرات شعريّ الصورة وقد استوطن أيوب صاحبهُ غربيّ جزيرة العربيّة في البثنيّة وضمّن آياتهِ كثيراً من التشابيه والاوصاف الشائعة بين العرب كذكر النجوم ووصف الخيل وغير ذلك . نجيب على هؤلاء انّ في هذا الرأي نظراً لاسبابٍ منها انّ سفر أيوب

(١) المشرق (٦ [١٩٠٣] : ٤٨٩ – ٤٩٣)

لا يعرف منهُ منذ نحو ثلاثة آلاف سنة غير ترجمتهِ العبرانيَّة ثم ليس لدينا حجَّة قاطعة يمكننا ان نستند اليها لنثبت كتابتهُ في لغة اخرى فانَّ مضامين هذا السفر والتقليد اليهودي القديم لا يذكرانِ شيئاً من ذلك. وعلى كلّ حال اذا صحّ قول العلماء بان سفر أيوب كتب بالاصل في العربيَّة فلا شكَّ ان تلك العربيَّة كانت مختلفة عن عربيتنا التي هي لهجة بعض قبائل الحجاز لهجة قريش التي لم تشعّ الَّا بعد قرون عديدة. ولعلَّها النبطيَّة او انهُ أخرى اقرب الى الاراميَّة منها الى العربيَّة. ومن ثمَّ ليس من الممكن الاستناد الى هذهِ اللغة المزعومة لتجعلها اصل شعرنا العربي في الوقت الحاضر

وان تنبَّهنا بعد ذلك سياق الاجيال منحدرين الى اوائل النصرانيَّة لا نجد ذكرًا للغة العربيَّة الَّا بعض تقاليد مستحدثة رواها الرواة بعد الاسلام لا يوثق بها. ولسنا لننكر انَّ العرب في تلك الاثناء تكلَّموا بلغة خاصَّة لكنَّ تلك اللغة كانت تختلف اختلافاً عظيماً في كل قبيلة على اختلاف مواقعها في انحاء الجزيرة وتأثير اللغات المجاورة لها وحالة المتكلمين بها من اهل حضَر او اهل المدَر فيطلقون على كلّ هذه اللهجات اسم اللغة العربيَّة كما يطلقون اسم العرب على اهل الجزيرة مع اختلاف عناصرهم القحطانيَّة والعدنانيَّة والاسمعيليَّة

ولعلَّ بعض رجال تلك القبائل بعد ان بسط الرومان سيطرتهم على نواحي العرب قلَّدوهم بعض اعمالها دوَّنوا شيئاً من مآثر لغتهم فأخذتها ايدي الضياع. ومن الشواهد الحسنة التي يمكننا ان نثبت بها قولنا كتابةٌ حجريَّة وُجدت في رومية سنة ١٧٧٣ (١ راقية الى اوائل القرن الثاني للمسيح في عهد تراجانوس القيصر. وهذه الكتابة لاتينيَّة كتبها ورَّاق عربيّ اسمهُ مرقس اوليوس كستوراس كان رافق حملتي الرومانيين في غالية وفي سوريَّة فجعلها على ضريح رجل اسمهُ مرقس اوليوس سيفورس كان معهُ في الحملتين:

M. ULPIUS SYMPHORUS, VIXIT ANNIS XXIV . . . ULPIUS CASTORAS LIBRARIUS ARABICUS BENE MERENTI QUOD IS EXPEDITIONIBUS DUABUS GALLIÆ ET SYRIÆ SECUM FUERAT

---

١) اطلب المجلَّة الاسيويَّة الفرنسويَّة (J. As. 1840 1. p. 199) وكتاب ليتورمان في الكتابة الفينيقيَّة Essai sur la propagation de l'Alphabet Phénicien. II, 145

فذكرُ ورّاقٍ او كاتب عربي في ذلك العصر من الامور الغريبة التي تثبت ما كان للعربيّة من الشأن في تلك الأيام. ولكن ما هي تلك العربيّة التي المشار اليها أهي عربيّة قريش ؟ او النبطيّة او الحيريّة او لغة قبائل الشام الخاضعة للرومان ؟ كلّ ذلك محتمل ولا يمكن بتّ الحكم به . وما لا شكّ فيه انّ ذلك الكاتب لم يخطّ كتاباته بالقلم العربيّ الذي برز للوجود في اواسط القرن السادس للمسيح فقط . وانّما كانوا يكتبون قبل ذلك بأقلام لغات أُخرى اخصّها في جنوبي جزيرة العرب الحميريّة والسبئيّة وفي الشمال بالنبطيّة والثموديّة واللحيانيّة والصفويّة وقد وُجدت من كلّ هذه الخطوط امثال مختلفة في جهات العرب يرقى بعضها الى ما قبل المسيح

وقد سبق لنا القول انّ اقدم كتابة تقرب لهجتها من عربية قريش هي الكتابة الضريحيّة التي وُجدت في جهات الصفا على قبر ملك العرب امرئ القيس بن عمرو وتاريخها في ٧ من شهر كانون الاوّل سنة ٣٢٨ للمسيح . وهي مكتوبة بالحرف النبطي الجميل نورد هنا رسمها . امّا لغتُها فمع قربها من لغة قريش اي لغتنا الفصحى لا تزال مضطربة مشوّشة مختلطة بالفاظ غريبة

فان كان المنثور في القرن الرابع للمسيح على هذه الصورة فما قولنا بالموزون ؟ ولنا هنا ايضاً شاهد صادق على انّ العرب في ذلك الجيل لم يجهلوا الشعر . وهو لاحد المعاصرين المؤرخ اليوناني سوزومان (١ فانّهُ في تاريخهِ الكنسيّ في الفصل الثامن والثلثين منهُ يذكر محاربة ماويّة ملكة عرب الشام للرومانيين وانتصارها على جيوشهم ثمّ تنشّرها وتنصّر قومها على يد احد السيّاح المدعو موسى . فهناك يصرّح المؤرخ بما شاع من الاغاني الحماسيّة بين رعايا ماوية يمدّدون فيها مآثرهم وغاراتهم على الرومان وهذا نصّهُ (١ :

Haec ita gesta multi ex earum regionum incolis etiamnum commemorant et apud Saracenos vulgo cantibus celebrantur.

وما يقوله المؤرخ سوزومان عن الاغاني الحماسيّة يجوز ان نطلقهُ على بقيّة امورهم كالافراح والاحزان والمديح والنزل والفخر لانّ الغناء غريزة في الانسان . ولكن يا ترى ماذا كانت اوزان تلك الاغاني ؟ كم كانت اجزاؤها ؟ كيف كان ايقاعها ؟ وهل

1) Sozom.: H.E, *L. VI, ch. 38,; Migne, pp. Gti, LXVII, col.* 1410

جدول اقدم الكتابات العربية

١ كتابة عربيّة بخط نبطي تاريخها سنة ٢٢٣ لبصرى ٣٢٨ للمسيح
وجدها في غارة من اعمال حوران للستشرق درسو

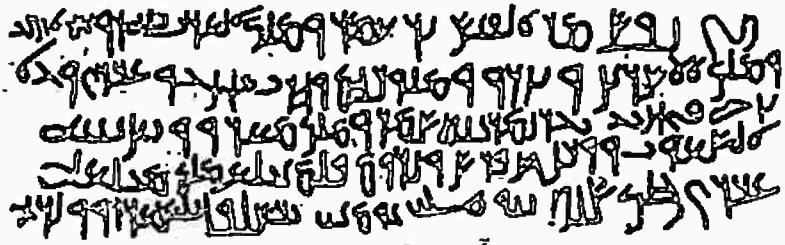

صورة الكتابة مأخوذة من الحجر

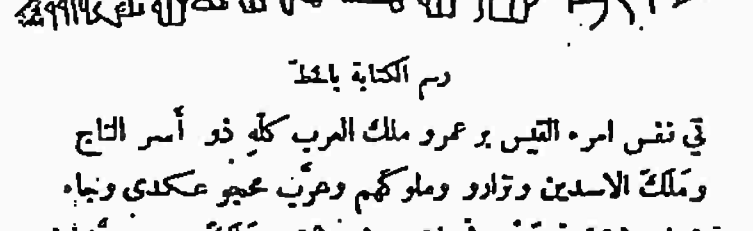

رسم الكتابة بالخط

ذي نفس امرء القيس بر عمرو ملك العرب كلّه ذو أسر التاج
ومَلَكَ الاسدين وتزاود وملوكهم وهرّب محجو عكدي وجاء
بزجاي (؟) في حَجّ نجران مدينت شتر ومَلَكَ معدو وبيّن بينه
الشعوب وو كلّهنّ فارسو لروم فلم يبلغ ملكٌ مبلغهُ
عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بالسعد ذو ولَدَهُ

رسم الكتابة بخط عربيّ (نقلًا من كتاب دوسو)

صورة القلم الحميري

صور ونصب سعداوم دملرم

٢ً كتابة زَبَد في ثلث لغات يونانيّة وسريانيّة وعربيّة
على مشهد اقيم ذكرًا لمار سرجيوس تاريخها ٨٢٣ للاسكندر ٥١٢ للمسيح
اطلب صورتها في القسم الاوّل (الصفحة ١٠٤)

٣ً ـ كتابة عربيّة يونانيّة وُجدت في حرّان من اعمال حوران
تاريخها سنة ٤٦٣ البصرى و٥٦٨ للمسيح

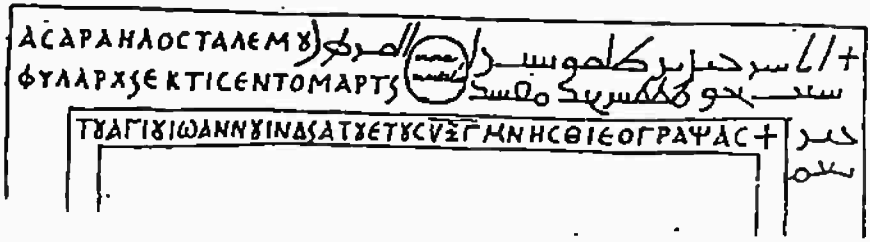

٤ً مثال خطّ عربي نسخيّ على البردي تاريخهُ السنة ٢٤ للهجرة (٦٤٦ م)

٥ً قطعة من سورة البقرة عن رقّ من القرن الثالث للهجرة في مكتبتنا الشرقية

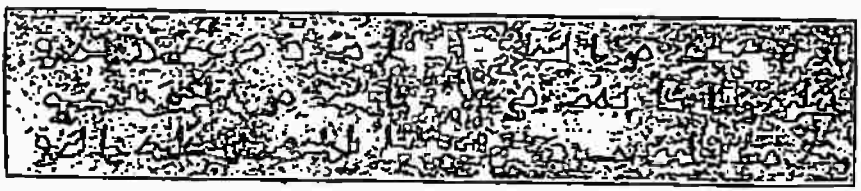

ودونك رسمها بالحرف الاسطرنجيّ للمقابلة بين الخطّين

ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ

وكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق

ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ

يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق

ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ ڡڝڡڝ...

حذر الموت والله محيط بالكافرين (كذا) ويكاد البرق ...

كانت لغتها فصيحةً كلغتنا او بالاحرى كانت لهجةً خاصّة لتلك القبائل ؟ اننا نجهل كلّ ذلك

فلكي نستطيع ان نبني كلامنا على اساس متين لا بُدّ ان نتقرّب الى زماننا بزهاء مائتي سنة اعني الى اوائل القرن السادس للمسيح فان الشعر العربي الموزون ذا الاجر المتعدّدة والايقاع الثابت لا تُرى آثارهُ قبل ذلك

ويؤيد قولنا اتّفاق كتبة العرب الاقدمين. قال الجاحظ في كتاب الحيوان (١ : ٢٧) : « امّا الشعر فحديث الميلاد صغير السنّ اوّل من نهج سبيلهُ وسهّل الطرق اليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلهل بن ربيعة . . . فاذا استظهرنا الشعر وجدنا لهُ الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »

وذكر السيوطي في المزهر (٢ : ٢٣٨) لعمر بن شبّة في طبقات الشعراء قولهُ : « وهؤلاء النفر المدّعى لهم التقدّم في الشعر متقاربون لعلّ اقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة او نحوها »

على انّ هذا القول يصحّ في القصائد المطوّلة ليس في الابيات القليلة التي لعلّ بعضها يرتقي الى اواسط القرن الخامس . قال محمّد بن سلّام الجمحي في طبقات الشعراء (ص ١٨) : « لم يكن لاوائل العرب من الشعر الّا الابيات يقولها الرجل في حادثةٍ وانّما قُصّدت القصائد وطُوّل الشعر على عهد عبد المطّلب وهاشم بن عبد مناف »

فيبقى البحث عن تلك الابيات المفردة والقليلة فكيف اهتدى الى نظمها العرب ؟ هل ابتكروها دون علم سابق ؟ او حذوا فيها حذو غيرهم من الامم المجاورة لهم كالحبش والروم والسريان ؟

قلنا انّ الغناء غريزة في الانسان والغناء يحتاج الى بعض الوزن والايقاع قلبّاً اراد الناطقون بالعربيّة المحضة وهي عربيّتنا التي اخذت بالثبات في القرن الخامس للمسيح ابتدأوا بالتعبير عن عواطفهم واحساساتهم في الحبّ والتحسّس والغضب والوصف بما يقرب من الشعر الموزون اعني بالكلام المسجّع الذي روى منهُ الرواة الاقدمون بعض المقاطيع كان يرتجلها الكهّان والعرّافون وبعض القوّالين . فمن اقدم ما رووا من ذلك قول ظريفة الحيرة الكاهنة تنذر زوجها الملك عمرًا بسيل العرم

(المسعودي في مروج الذهب ٣ : ٣٧٩) :

« ما رأيتُ اليوم. قد ذهب عني النوم. ورأيتُ غيماً أبرق. وارعد طويلاً ثم أصْعق. فما وقع على شيءٍ الا احترق. فما بعد هذا الا الغرق». (وقالت ص ٣٨٢) : « هي داهيةٌ دَكيسة. ومصيبةٌ عظيمة. بامور جسيمة . . . انَّ لي فيها الويل. ممَّا يجيءُ به السَّيْل . . . خطبٌ جليل. وحزن طويل. وخلفٌ قليل. وعدٌ من الله تزل. وباطلٌ يضلّ. ونكالٌ بنا نكل. فبنبرك يا عمرو فليكن النَّكل »

فترى في هذه الاقوال اسجاعاً متتالية بينها شيءٌ من الموازنة فانتقلوا منها الى ابسط البحور وهو الرجز فلزموا التقفية كلزومهم الاسجاع في المنثور وراعَوْا فيه عدد الاجزاء والوزن مع جوازات كثيرة. وكانت ابياتهُ قليلة . قيل انَّ من اقدم ما ورد منهُ قول دُوَيد بن زيد بن نهد حين حضرهُ الموت :

اليوم يُبْنَى لدُوَيد بَيْتُهُ لو كان للدهر بلىً أبلَيْتُهُ
او كان قِرْني واحداً كفيتُهُ يا ربَّ غَبٍّ صالحٍ حويتُهُ
ورُبَّ غِلٍّ حسنٍ لويتُهُ

وقول امرئ القيس اذ بلغهُ خبر قتل ابيهِ بدُمُون في نواحي اليمن :

تطاولَ الليل علينا دمُونْ دمُونُ انَّا معشرٌ يَمانونْ
واتنا لقومنا محبُّونْ

ومثلهُ لكُلَيب اخي المهلهل وتروى لطرفة ارتجز بها اذ رأى قنابر تلتقط حبًّا يُنثر لها :

يا لكِ من قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري
قد رُفع الفخُّ فماذا تحذري وقرّي ما شئتِ ان تقرّي
قد ذهب الصيادُ عنك فابشري لا بُدَّ يوماً ان تُصادي فاصبري

فان كان السجع والرَّجز المذكوران هما كما يظهر اصل الشعر العربيّ ترتقي آثارهما الى اوائل القرن السادس او اواخر الخامس فيجب البحث عن أمة مجاورة للعرب امكنهم ان يتقلّدوها في سجعهم ورجزهم السابقين . واننا نرى ان تلك الأمّة كانت الأمّة الاراميّة اي الكلدان والسريان الذين كانوا منذ اواسط القرن الرابع بعد تنصُّرهم زيَّنوا كلامهم المنثور بالسَّجع والفواصل ونظموا شعراً يقرب من اراجيز العرب. ولمَّا كان الاراميُّون يستوطنون حدود العرب وكثيراً ما امتزجوا بهم امتزاج

الماء بالراح وبنوا في جزيرتهم العدد العديد من الاديرة والمناسك حيث كان الرهبان يتغنون بالتسابيح ويحيون لياليهم بالاناشيد الروحيّة فيسمعهم اهل البادية ويرددون نغماتهم فتبعثهم على الاقتداء بهم كما فطروا بعد ذلك في تجويد القرآن على ما اثبتنا سابقاً فلا نشكّ ان العرب اخذوا ايضاً عن نصارى السريان والكلدان تسجيع الكلام وموازينهُ الشعريّة البسيطة كما ترى في الاراجيز العربيّة . ولعلّ القبائل القريبة من الروم وجدت ايضاً في تلحينهم وغنائهم وشعرهم ما دفعهم الى التشبُّه بهم في آدابهم

ويؤيّد قولنا هذا ان كثيرًا من القبائل العربيّة المتنصّرة كانت تحضر ما يقيمهُ في وسطها من الرتب الدينيّة الاساقفة والكهنة خصوصاً في جهات الشمال والشمال الغربيّ حيث توفّرت الكنائس النصرانيّة الكلدانيّة والسريانيّة وفي جهات الشام شرقيّ دمشق وفي نواحي الاردن حيث انتشرت اليونانيّة وأُقيمت الطقوس الكنسيّة في تلك اللغة . اما القبائل المتنقّلة فكان يرافقها اساقفة او كهنة يُدعَون باساقفة المضارب كما شرحنا ذلك كلّهُ في القسم التاريخيّ . فلا غرو ان العرب الذين كانوا يعاينون تلك المحافل الدينيّة ويسمعون ألحانها تأثّروا منها فاستفزّتهم قريحتهم الى ان يجروا عليها نوعاً سواء كان في غنائهم او في شعرهم

ولنا في ما رويناهُ عن سوزومان المؤرخ شاهد آخر على رأينا اذ ينسب الى بني غسّان تلك الاغاني العربيّة التي كانوا ينشدونها بعد محاربتهم الرومان . وهو في الفصل عينه يذكر تنصّرهم وفي ذلك دليل على اصل كلامهم الموزون وعلاقتهِ مع دينهم النصرانيّ سواء كانت تلك الاغاني اسجاعاً مرصوفةً او اراجيز موزونة

٢ في نشأة الشعر العربي وتقصير القصائد

كان بحر الرجز كأساس اوّل للشعر العربيّ . على انّ تفاعيلهُ بما فيها من الجوازات الشعريّة العديدة ما لبثت ان برزت على صور شتّى تفنّن بها الشعراء بتركيب الاسباب والاوتاد فاخرجوها على اوزان مختلفة جروا عليها بفطرتهم دون ان يدوّنوها بكتاب مكتوب فبقيت سماعيّةً تقليديّة الى ان قام الخليل في القرن الثاني للهجرة وامعن النظر في صورها واوزانها واستخرج اعاريضها واثبتها على قواعد صحيحة . والى ذلك اشار ابن الرشيق في العمدة (ص ٥) بقولهِ في اصل الشعر العربيّ : « كان الكلام

كلهُ منثورًا فاحتاجت العرب الى الفناء بمكارم اخلاقها . وطيب أعراقها . وذكر أيامها الصالحة . واوطانها النازحة . وفرسانها الانجاد . وشجعانها الأجواد . لتهزّ نفوسها الى الكرم . وتدلّ ابناءها على حسن الشيم . فتوهموا اعاريض جعلوها موازين الكلام . فلمّا تمّ لهم وزنهُ سمّوهُ شعرًا لأنهم قد شعروا به اي فطنوا لهُ »

وهنا لا نتردّد في القول بانّ الذين قاموا بذلك فوضعوا هذه الاوزان انّما كانوا من العرب المتنصّرين من قبائل غلبت عليها النصرانيّة بشهادة قدماء المؤرخين لاسيما المسلمين كقبائل ربيعة التي منها بكر وتغلب ويشكر وحنيفة وكقبائل قضاعة ومنها كلب وتنوخ وكقبائل اليمن ومنها كندة ولخم وغسّان وبعض قبائل قيس كذبيان وعبس . نُخيل القرّاء لاثبات نصرانيّتهم الى قسمنا الاوّل في تاريخ النصرانيّة في عهد الجاهليّة

وعلى رأينا انّ شعراء الجاهليّة الاوّلين اذ اكتحلوا بنور النصرانيّة واحتكّوا باهلها من الامم المجاورة كالسريان واليونان والحبش ودخلوا على ماركها العرب الغسانية والمناذرة وبني الحارث وكان تمدّن اليونان والروم والفرس غلب عليهم تأدّبوا بآدابهم وجاروا اولئك الطوائف في بلاغتهم وتأنّقوا بالنظم على مثالهم

وساعد الشعراء في تقصيد قصائدهم ما جرى في القرن السادس للمسيح من الوقائع والحروب التي اشتهر فيها العرب سواء كانت تلك الحروب اهليّة بين القبائل كحرب البسوس او جرت لهم مع الاجانب كحرب ذي قار بين العرب والفرس . فانّ الشعراء وجدوا فيها ما استفزّ قريحتهم وهيّج احساساتهم فوصفوها بقصائدهم وللنصارى منهم فيها حظّ وفيّ كما سترى . (لهُ صلة)

الانتحار

بنسبة مقالة حديثة في فتى الارز

للاب لويس شيخو اليسوعي

الانتحار ! وما ادراك ما الانتحار ! خطبٌ مريع بل شرٌّ شنيع واثمٌ فظيع كاد